تراثنا المخطوط : درا

لم تكن الكتابة شيئا مجهولا بالنسبة للعرب في جاهليتهم ٠ فالى جانب النقوش التيعثر عليها المنقبون فيصحرائهم والتى تؤرخ بعصر ما قبل الاسلام مثل نقشى زبد وحران ، احتفظت لنا مصادر تاريخهم بأخبار متواترة عن قوم كانوا يعرفون الكتابة في الجاهلية كالذى يرويه البلاذرى من آن الاسلام دخل وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب ، وان الاسلام جاء وفيالاوس والخزرج عدة يكتبون (١) وقد أحصاهم فبلغوا أحد عشر رجلا على رأسهم سعد بنعبادة وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ٠

وكما تحدثت كتب التاريخ العربى عمن كانوا يعرفون الكتابة في العصر الجاهلى ، كذلك ذكرت أن بعض الشعراء كانوا يكتبون قطعا من أشعارهم ويرسلونها الى قبائلهم تحمل اليهم العتاب حينا ، وتصف لهم أحوال الاسر حينا اخر ، وتحذرهم من غزو الغزاة وطمع الطامعين في بعض الاحيان (٢) ٠ وصحيفة المقاطعة التى كتبتها قريش والتزمت فيها بمقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب في أول العهد بالاسلام دليل علىمعرفة العرب بالكتابة قبل ظهور الاسلام وفي الشعر الجاهلىاشارات متعددة الى نصوص مكتوبة كقول امرىء القيس:

اتت حجج بعدى عليها فاصبحت   كخط زبور في مصاحف رهبان (٣)

الدكتور عبد الستار الحلوجى

سة فى تاريخ النشأة والتطور

وقول الحارث بن حلزة :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قدم فيه : العهود والكفلاء

حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما في المهارق الأهواء ؟ (٤)

وفيه أيضا تشبيهات للاطلال ورسوم الديار بالكتابة كقول لبيد في مطلع معلقته :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تابد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كماضمن الوحى سلامها
وجلا السيول عن الطلول كانها زبر تجد متونها أقلامها

فهو يشبه رسوم الديار بالوحى أو بالكتابة في الحجارة الرقيقة ويقول ان السيول جلت التراب عن الطلول حتى لكأنما هى كتب تعاد عليها الكتابة بعد دروسها ·

والقرآن الكريم نفسه يثبت للعرب معرفتهم بالكتابة قبل الاسلام في أكثر من موضع · فنحن نقرأ في محكم آياته : « وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »(٥) «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ·· أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك

حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا» (٦) «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس» (٧)

وليس معنى هذا أن الكتابة كانت منتشرة بين العرب في تلك الحقبة المبكرة من تاريخهم ، فقد كانوا في جاهليتهم أمة أمية تعيش حياة بدوية بسيطة لا تحس فيها بحاجة الى الكتابة في تصريف أمورها ، ولم تكن أدوات الكتابة ووسائلها ميسورة لهم لانهم لم يعرفوا منها غير العسب واللخاف والاقتاب وعظام الاكتاف والاضلاع . ومن ثم كانت الكتابة محصورة في أناس معدودين ولم تكن تمارس الا في أضيق الحدود .

أما ما يروى من أن المعلقات قد كتبت على القباطى المدرجة بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة فقد شكك فيه أبو جعفر احمد بن النحاس منذ أكثر من ألف سنة حيث يقول : «فأما قول من قال انها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة» (٨) وهناك أكثر من سبب يدعونا للتردد في قبول هذه الرواية نذكر منها :

أولا : أن حمادا الراوية هو الذى جمع السبع الطوال وشهرها في الناس ، وأن ابن الكلبى هو الذى زعم أنها علقت على الكعبة ، وكلاهما متهم مشكوك في رواياته . فحماد اتهمه الاصمعى والمفضل الضبى (٩)، وابن الكلبى كذبه صاحب الاغانى في أكثر من موضع ، ووصفه السمعانى بأنه يروى الغرائب والعجائب والاخبار التى لا أصول لها . (١٠)

ثانيا : أن الكتابة بماء الذهب لم تكن معروفة في الجاهلية ، وأن العرب لم يعرفوا القباطى — وهى الاقمشة التى كان أقباط مصر يتخذون منها ثيابهم — الا بعد الفتح الاسلامى لمصر في عهد عمر .

ثالثا : أن هناك خلافا على تلك المعلقات . فالبعض يعدها سبعا ، والبعض يكملها عشرا . وبين أولئك وهؤلاء اختلاف كبير . بل إن الخلاف ليمتد الى أصحاب الرأى الواحد . فأبو عبيدة يعتبرهم سبعة ويعد منهم الاعشى والنابغة (١١) بينما يسقطهما البغدادى ويثبت مكانهما عنترة والحارث (١٢) . ولو أنها كتبت فعلا ما وجدنا مثل هذا الخلاف .

رابعا : أننا نجد في تلك القصائد اختلافا في روايات أبياتها لا يقل عن الاختلاف

في رواية غيرها من الشعر الجاهلى • ولو قد كتبت فعلا وعلقت في الكعبة لاحتفظت بنصوصها الاصلية دون تحريف أو تبديل •

خامسا : أن كتب التاريخ والسيرة لم تذكر شيئا يفيد أن الكعبة كان بها قصائد معلقة عندما دخلها النبى صلى الله عليه وسلم غداة الفتح العظيم ، وان الرسول قد أبقى عليها أو أمر بانتزاعها باعتبارها شعرا وثنيا يجب أن يتطهر منه بيت الله الحرام •

سادسا : أن مواد الكتابة وأدواتها في العصر الجاهلى لم تكن تسمح بكتابة نصوص طويلة كالمعلقات • فكم من الحجارة والعسب والجلود يكفى لكتابة سبع قصائد ـ في أقل الروايات ـ تربو الواحدة منها على مائة بيت ؟ ثم ما الداعى الى هذه المشقة وهذا العناء الشديد في كتابة طويلة كهذه وهى لا تمس معتقداتهم في كثير ولا قليل ؟ • وهبهم وجدوا في أنفسهم مبررا لهذا العنت الشديد ، وهبهم جمعوا من الحجارة والعظام والعسب والجلود ما يكفى لكتابة كل هذه الاشعار فهل يعقل أنهم كانوا يعلقونها في الكعبة أو بين أستارها أو حتى على جدرانها ؟ وكيف ؟

والنتجية التى نخرج بها مما تقدم هى أن الشعر الجاهلى لم يدون في الجاهلية وانما ظل يحفظ في الصدور ويجرى على الالسنة شفاها حتى دون في أواخر العصر الاموى وأوائل العصر العباسى • « ومن الادلة على ذلك أننا لا نجد راويا ثقة يزعم أنه نقل من قراطيس كانت مكتوبة في الجاهلية ، كما أننا لا نجد راويا ثقة يزعم أن شاعرا في الجاهلية ألقى قصيدته من صحيفة مدونة » (١٣) ولو أن شعراء الجاهلية كانوا يدونون أشعارهم ما طالعتنا تلك الظاهرة الملفتة للنظر والتى لا توجد الا حيث ينعدم التدوين ، ونعنى بها ظاهرة الرواة الذين كانوا أبواقا لمشاهير الشعراء ينقلون عنهم أشعارهم ويذيعونها في الناس • والشعر الجاهلى نفسه لا يخلو من اشارات كثيرة الى الرواية الشفوية على أنها السبيل التى كان يسلكها ليصل الى أسماع العرب على اختلاف ديارهم ومنازلهم ، ولينتقل عبر المكان من قبيلة الى قبيلة ، وعبر الزمان من جيل الى جيل • ولم تبطل تلك الوسيلة بظهور الاسلام وانما ظلت تقوم بدورها ما يقرب من قرنين من الزمان •

بداية الطريق :

وبانتقالنا من العصر الجاهلى الى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

ننتقل الى مرحلة جديدة في تاريخ الكتابة العربية تتصف بالخصب والنماء فأول آية نزلت من القرآن تشيد بفضل الكتابة وتعدها من أجل نعم الله على عباده حيث يقول سبحانه وتعالى « **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم**» (١٤) والله سبحانه وتعالى يقسم بالقلم حيثيقول: «**ن.والقلم وما يسطرون**» (١٥) وبالكتاب اذ يقول « **والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور** » (١٦) بل اننا لنجد القرآن الكريم يحث صراحة على استخدام الكتابة في المعاملات بين الناس وذلك في قوله تعالى : « **ياأيها الذين آمنو اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق....ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا اوكبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا** » **(١٧)**

وليس غريبا بعد ذلك أن نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على تعلم الكتابة والقراءة كأداة لمعرفة الدين ووسيلة لنشره وتبليغه. فقد كان الدين الجديد في حاجة الىكتاب يدونون آياتالكتاب الكريم ويكتبون الرسائل التى يبعث بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى شتى بقاع الارض يدعو الناس فيها الى الدخول في دين الله . والى جانب كتاب الوحي وكتاب الرسائل كان للرسول صلى الله عليه وسلم كتاب يختصون بكتابة الغنائم ، وآخرون يكتبون أموال الصدقات، وآخرون للكتابة فيشئون المسلمين ومعنى هذا أن الكتابة قد بدت تنتشر ويتوسع في استعمالها وان كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد وضع ضوابط محددة لهذا التوسع . فمع أنه أذن لبعض الصحابة مثل عبد الله بن عمرو بن العاص في كتابة الحديث ، الا انه نهى عن كتابة شيء سوى القرآن في أحاديث أخرى كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه . وحدثوا عنى فلا حرج . ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وقد ذهب الخطيب البغدادى في كتابه « تقييد العلم » الى أن النهى عن الكتابة كان في الصدر الاول من الاسلام وذلك لسببين : أولهما : الخشية من أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره أو يشتغل عن القرآن بسواه ، وثانيهما : الخوف من الاتكال على الكتابة وترك الحفظ خاصة في تلك الفترة الاولى التى كان الاسناد فيها قريبا . يقول : « ونهى عن الاتكال على الكتاب لان ذلك يؤدى الى اضطراب الحفظ حتى يكاد يبطل ، واذا عدم الكتاب قوى لذلك الحفظ الذى يصحب الانسان في كل مكان » (١٨)

واذن فقد كانت الكتابة العربية موجودة قبل ظهور الاسلام ولكنها لم

تنتشر الا بانتشار الاسلام وذيوعه · ولئن كان عصر الرسول وصحابته قد شهد تحرجا في استعمالها فقد انصب هذا الحرج فقط على التوسع في الاستعمال في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدعوة·ولم تلبث دواعى التدوين أن فرضت نفسها على العرب وأخذت تلح عليهم يوما بعد يوم نتيجة لانتشار الروايات وتشعب الاسانيد وكثرة أسماء الرجال وكناهم وأنسابهم مما جعل الحفظ أمرا عسيرا مجهدا · ومع ذلك فقد ظل الحرج ينتقل الى نفوس التابعين ومن تبعهم جيلا بعد جيل حتى بدأت حركة التدوين مع أوائل القرن الثانى · وخلال هذا القرن الاسلامى الاول كان التدوين كله يكاد يكون مقصورا على كتاب الله

اول كتاب مخطوط :

وكتابة المصحف في حد ذاتها لها قصة معروفة · فقبل أن ينتقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الرفيق الاعلى كان القرآن مكتوبا ولكنه كان مفرقا في الرقاع والاكتاف والعسب والصحف ، وكان موزعا فيأماكن متعددة · ولم يجمع له نص كامل في موضع واحد الا في عهد أبى بكر بعد أن استحر القتل بالقراء يوم اليمامة وأشفق عمر من أن يضيع القرآن بمقتل حملته وحافظيه ، ففزع الى خليفة رسول الله يقترح عليه جمع القران · فاستجاب أبو بكر بعد تردد ، وكلف زيد بن ثابت بهذه المهمة الجسيمة· وظلت الصحف التى دون فيها القرآن عند أبى بكر يحتفظ بها وديعة غالية حتى توفاه الله ، فانتقلت الامانة الى خليفته عمر وظلت عنده حتى لقى ربه ، فآلت من بعده الى أم المؤمنين حفصة بنت عمر وبقيت عندها الى أن وقع الخلاف بين القراء حين التقى الشاميون بالحجازيين والعراقيين في فتح أرمينية وآذر بيجان ، وقرأ كل منهم قراءته ، ولم يزل يعظم الخلاف بينهم ويشتد حتى كفر بعضهم بعضا وتبرأ بعضهم من بعض · وبلغ ذلك عثمان فأرسل الى حفصة يطلب الصحف التىعندها ، وكلف زيد بن ثابت وعبدالله بنالزبير وسعيد بنالعاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بنسخها في المصاحف ، ثم ردها الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ·

وقد كانت المصاحف الاولى خالية من النقط والشكل· يؤكد ذلك ماروى عن الاوزاعى من أنه قال : « سمعت يحيى بن أبى كثير يقول : كان القرآن مجردا في المصاحف ، فاول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء وقالوا : لا بأس به هو نور له » (١٩) ويؤكده أيضا أن أقدم المصاحف الموجددة حاليا في شتى أنحاء العالم خالية من النقط والشكل وفي مقدمتها

مصحف جامع عمرو الموجود بدار الكتب بالقاهرة، ومصحف سمرقند، ومصحف الجامع الكبير بصنعاء ، وكل منها يقال انه المصحف الامام الذى استشهد عليه الخليفة عثمان بن عفان · وهى أقوال ينقض بعضها بعضا ، ولا يقوم على أى منها دليل ·

وحينما فسدت الالسنة وظهر اللحن فزع المسلمون الى كتاب الله يضبطون آياته ، وكانت اول مرحلة من مراحل ضبط الكتابة العربية هى تلك التى تمت على يد أبى الاسود الدؤلى (المتوفى سنة ٦٩ هـ) الذى وضع النقط على أواخر الكلمات للدلالة على العلامات الاعرابية ، فالفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة تحته ، والضمة نقطة عن يمينه ، وفي حالة التنوين تصبح النقطة نقطتين · ولم تلبث الحاجة أن ظهرت الى اعجام حروف الكتابة أو نقطها للتفريق بين المتشابه منها · ويذكر ابن خلكان أن الحجاج هو الذى أمر كتابه أن يضعوا للحروف المتشابهة في الرسم علامات تميز بعضها عن بعض حتى يقضى على ما شاع في زمنه من تصحيف في القراءة · (٢٠)

وهكذا شهد الربع الاخير من القرن الاول الهجرى كتابات عربية ذات نقطين : نقط اعراب ونقط اعجام · وكان أولهما بلون مخالف للون المداد الذى كتبت به الحروف ، أما الثانى فكان بلون المداد الاصلى على اعتبار أن اعجام الحرف جزء منه ·

ولكن وجود نوعين من النقط كان أمرا معقدا ومجهدا للكاتب والقارىء على السواء ، وكان في الوقت نفسه مدعاة لاختلاط الكتابة على القراء · ومن أجل هذا كان لابد من عملية تيسير للكتابة العربية ، فكانت المرحلة الاخيرة من مراحل تطورها وهى التى تمت على يد الخليل بن احمد في العصر العباسى الاول · وتتلخص مهمة الخليل في ابدال النقط التى وضعها أبو الاسود للدلالة على الحركات الاعرابية بجرات علوية وسفلية للدلالة على الفتح والكسر وبرأس واو للدلالة على الضم ، على أن تكرر العلامة في حالة التنوين · ولم يقتصر عمل الخليل على وضع العلامات الاصلية فحسب ، وانما أضاف اليها خمس علامات أخرى هى السكون والشدة والمدة وعلامة الصلة والهمزة · وبذلك اقتربت الكتابة العربية من صورتها الحالية ·

على أن ظهور تلك العلامات لم يقض على شكل حروف القرآن بطريقة النقط القديمة ، فقد كان بعض الكتاب يلتزمون الطريقة التقليدية في كتابة المصحف ، ويتحرجون من ادخال أى تعديل على الصورة القديمة للكتابة · ونحن نلمس هذا الحرج الذى كان يخامر الصدور في كلام أبى عمرو الدانى

الذى يقول فيه « وترك استعمال شكل الشعر وهو الشكل الذى في الكتب الذى اخترعه الخليل في المصاحف الجامعة من الامهات وغيرها أولى واحق اقتداء بمن ابتدأ النقط من التابعين واتباعا للأئمة السابقين » (٢١)

كيف تكون التراث ؟

ومنذ منتصف القرن الاول الهجرى بدأت المؤلفات العربية تخرج الى حيز الوجود ٠ فابن النديم يحدثنا أن عبيد بن شرية الجرهمى وفد على معاوية فسأله عن الاخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الالسنة وامر افتراق الناس في البلاد ، وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجابه الى ما سأل فامر معاوية أن يدون ذلك وينسب الى عبيد (٢٢) ويذكر ابن النديم أيضا أن زياد بن أبيه هو أول من الف كتابا في المثالب ، وأن صحارا العبدى (أحد النسابين والخطباء في أيام معاوية) كان له كتاب في الامثال (٢٣) وأن أبا مخنف (من أصحاب على) ألف كتابا في التراجم (٢٤) ، وأن خالد بن يزيد ابن معاوية له عدة كتب ورسائل في الصنعة (٢٥)

وخلال القرن الثانى تنشط حركة التأليف العربية نشاطا رائعا ٠ فالامام الشافعى ـ مثلا ـ تجاوزت مؤلفاته مائة كتاب ، وهشام الكلبى ألف أكثر من مائة وعشرين كتابا في الاحلاف والمآثر والاخبار والانساب ٠ كذلك ألف المدائنى ثلاثمائة وسبعة وثلاثين كتابا في الاخبار بعضها في أخبار النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء والفتوح ، وبعضها في أخبار العرب وقريش خاصة ، وبعضها في أخبار الشعراء وأخبار النساء ٠ (٢٦)

وتمضى حركة التأليف الى غايتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فيطالعنا رجل كالجاحظ الذى كتب في كل شيء كما يقول آدم ميتز (٢٧) وتجاوزت مصنفاته مائة وعشرين كتابا أشار اليها في أول كتابه « الحيوان » وذكرها ياقوت في معجمه (٢٨) وفهرست ابن النديم يعطينا صورة كاملة لما وصلت اليه حركة التأليف في تلك الفترة ، فهو يذكر لداود بن على أكثر من ٢٥٠ كتابا ويذكر للكندى ما يقرب من هذا العدد من كتب فلسفية ورياضية وطبية وموسيقية وغيرها ، ويحصى لمحمد بن مسعود العياشى السمرقندى مائة وواحدا وثمانين كتابا، ويروى عنحيدر أن «كتبه مائتان وثمانية كتب» (٢٩) ولعل من أبرز مؤلفى هذا العصر الطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازى الذى بلغت مصنفاته مائتين وخمسين مصنفا (٣٠) ، وابن جرير الطبرى الذى يروى أنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة (٣١) ٠

ولم تكن كثرة المؤلفات هى كل ما يلفت النظر في هذا العصر ، فقد يقال

انها كانت مباحث صغيرة لا يتجاوز الواحد منها بضع أوراق كمسائل نافع بن الازرق التى تنسب الى ابن عباس والتى نشرها محمد فؤاد عبد الباقى ملحقة بمعجم غريب القران ، وكغيره من الكتب التى ألفت عن السيوف أو القداح أو الصداق أو صلاة العيدين أو صلاة الخوف أو صلاة الاستسقاء . ولكن الشيء الذى لا شك فيه أن كثيرا من مؤلفات تلك الفترة كان كبير الحجم والسعة مثل كتب المغازى والفتوح وتفسير الطبرى وتاريخه، وأغانى الاصفهانى ومروج الذهب للمسعودى . ومن يرجع الى فهرست ابن النديم يجد فيه ألوفا من الكتب بلغت بضعة ألوف من الاوراق . ويحدد لنا صاحب الفهرست حجم الورقة التى يقصدها فيقول انها « سليمانية ومقدار ما فيها عشرون سطرا ، أعنى في صفحة الورقة » (٣٢)

الروافد الثلاثة :

ولقد تضافرت عوامل ثلاثة على انجاح حركة التأليف واثراء التراث العربى . أول هذه العوامل هو صناعة الورق في حاضرة الخلافة العباسية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى. فقد أقام الفضل بن يحى البرمكى وزير الرشيد مصنعا له في بغداد (٣٣) وأمر أخوه جعفر باستعمال الورق بدل الرقوق في الدواوين (٣٤) « لان الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فانه متى محى منه فسد ، وان كشط ظهر كشطه » كما يقول القلقشندى . (٣٥)

ولم يكد يمضى قرنان على نشأة تلك الصناعة في العراق وبلاد ما وراء النهر حتى انتقلت الى الشام وفلسطين ثم الى المغرب العربى . ولم تلبث أن عبرت البحر الى صقلية وايطاليا وأسبانيا . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هى انتشار الورق في شتى أرجاء الدولة الاسلامية ورخص أسعاره ورواج سوق النسخ في تلك الحقبة من التاريخ .

أما العامل الثانى فهو ظهور مجالس الاملاء ، وهى تقابل ما يعرف اليوم بالمحاضرات العامة تلقى في فروع المعرفة التى تهم الجماهير وتشغلهم كالحديث والفقه واللغة . وقد بدأت مجالس الاملاء هذه تنتشر وتصبح ظاهرة عامة على مشارف القرن الثالث الهجرى ، وكانت بالطبع متمركزة في بغداد مقر الخلافة ومركز الحركة العلمية ومقصد العلماء والادباء من شتى بقاع العالم العربى والاسلامى . ففى فهرست ابن النديم أن ابن الاعرابى (ـ ٢٣١ هـ) « أملى على الناس ما يحمل على أجمال » (٣٦). وفي مواضع متفرقة من «تاريخ بغداد يحدثنا الخطيب البغدادى عن مجالس الاملاء هذه وعما بلغته من ضخامة

ويكفى أن نذكر أن مجلس عاصم الواسطى (ـ ٢٢١ هـ) في الحديث ـ مثلا ـ كان يضم أكثر من مائة ألف شخص (٣٧) وان ابن الجعابى (ـ ٣٥٥) كان « يملى مجلسه فتمتلىء السكة التى يملى فيها والطريق » (٣٨) .

ولضخامة هذه المجالس لم يكن صوت الشيخ يسمع جموع الحاضرين ، ولم تكن مكبرات الصوت قد عرفت بعد في ذلك الزمان البعيد . ومن أجل هذا ظهرت في المجتمع فئة جديدة تعرف بالمستملين وهم الذين يرددون كلام الشيخ وراءه حتى يسمع الناس . ونستطيع أن نتصور حاجة الجماهير الى هؤلاء المستملين حين نقرأ ما يقوله عمر بن حفص من انه سمع عاصم الواسطى يوما يقول : حدثنا الليث بن سعد ، وأن الحاضرين كانوا يسألونه أن يعيد حتى أعاد أربع عشرة مرة والناس لا يسمعون ، وأن هارون المسملى كان يركب نخلة معوجة ويستملى عليها (٣٩)

ولقد تمخضت مجالس الاملاء هذه عن كتب كثيرة ظهرت باسم «الامالى» لعل من أشهرها أمالى ثعلب والزجاج في النحو ، وآمالى ابن دريد في العربية، واما‌لى أبى جعفر البخترى في الحديث ، وامالى القالى التى « أودعها فنونا من الاخبار وضروبا من الاشعار وأنواعا من الامثال وغرائب من اللغات » (٤٠)

وكان العامل الثالث هو ظهور صناعة الوراقة وطبقة الوراقين الذين كانوا يقومون بمهمة نسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وبيعها ، وهو ما يعرف اليوم بصناعة النشر والتحقيق والتوزيع ، وكان لهم سوق في بغداد بلغت أكثر من مائة حانوت في زمن اليعقوبى (٤١) ولم تكن تلك الحوانيت مجرد دور للنسخ وانما كانت مجالس للعلماء والشعراء (٤٢) وملتقى للطبقات المثقفة « تماما كما كانت تلتقى الطبقات المثقفة في المكتبات في روما القديمة » كما يقول جروهمان (٤٣) .

ومعروف أن الجاحظ كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر (٤٤) وبعده بقرن تقريبا كان أبو الفرج الاصفهانى « يدخل سوق الوراقين وهى عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئا كثيرا من الصحف ويحملها الى بيته ثم تكون رواياته كلها منها » كما يذكر الخطيب (٤٥) وفي ذلك دليل على أهمية الدور الذى كانت تلعبه تلك الحوانيت في مجال الثقافة والمعرفة والبحث العلمى ، فقد كانت دورا للثقافة بمفهوم العصر الحديث ، وكان يقوم عليها في كثير من الاحيان رجال فضلاء وعلماء أجلاء لعل من أبرزهم في القرن الرابع الهجرى محمد بن اسحق النديم صاحب كتاب الفهرست الذى يدل على مبلغ علمه وسعة اطلاعه والمامه بما صنف من الكتب العربية والمعربة في شتى فروع المعرفة ، والذى يعتبر بحق أول عمل ببليوجرافى متكامل في اللغة العربية .

وكان الوراقون عادة يسعون الى المؤلفين يحصلون منهم على ما يمكن أن نسميه « حقوق النشر » بمصطلح العصر الحديث ، ثم يمضون الى العلماء وطلاب العلم يعرضون عليهم بضاعتهم من الكتب التى أعطى لهم مؤلفوها حق التوريق فيها · فمن أراد نسخة من كتاب فما عليه الا أن يتفق مع الوراق على السعر والوقت اللازم لعملية النسخ والمراجعة والضبط ·

وفي الوقت نفسه كان بعض الوراقين يختصون بعلماء معينين فيلزمونهم · فكان سلمة بن عاصم وأبو نصر بن الجهم يورقان للفراء (٤٦) ، وكان أبو القاسم عبد الوهاب بن أبى حية وأبو يحيى زكريا بن يحيى يورقان للجاحظ (٤٧) ، وكان محمد بن الحسن ابن دينار الاحول « يورق لحنين بن اسحق المتطبب في منقولاته للعلوم الاوائل » (٤٨)

كما أن بعض الوراقين كانوا موظفين دائمين عند علية القوم وسراتهم · ففى مصر ـ مثلا ـ كان في خزانة الوزير أبى الفرات عدة وراقين (٤٩) وكان في دار الوزير أبى الفرج يعقوب بن كلس « قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب ، حتى الطب ، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها » (٥٠) وفي الاندلس كان للقاضى أبى المطرف عبد الرحمن بن فطيس « ستة وراقين ينسخون له دائما ، وكان قد رتب لهم على ذلك راتبا معلوما » (٥١)

ولقد كان نشاط حركة الوراقة في القرنين الثالث والرابع الهجريين يعكس نشاطا فكريا رائعا ويمثل جانبا مضيئا لا نقول فيتاريخ الثقافة العربية فحسب ، وانما في تاريخ الحضارة الانسانية كلها ، فقد كانت عاصمة العباسيين في ذلك الزمان البعيد تتمتع بثراء فكرى منقطع النظير ، وكانت سوق الوراقين مركزا للنشاط العقلى ، وكانت حوانيتهم مستودعا لكل ما أنتجته القريحة العربية في شتى فروع المعرفة · وكانت كثرة هذه الحوانيت ورواج سوقها دليلا واضحا على خصوبة الفكر العربى واهتمام الناس في ذلك الزمان بكل ما يلقى في مجالس الاملاء وما يدون في بطون الكتب من علوم الدنيا والدين ·

ولكن الصورة المضيئة لم تكن تخلو من جوانب معتمة ، فلم يكن كل الوراقين من الثقات وأهل العلم والفضل ، وانما كان منهم من يتصف بالمبالغة والكذب والاختلاق · ولقد وجدت هذه الفئة من الوراقين مجالا واسعا للكسب في كتب الاسمار والخرافات لانها ـ كما يقول ابن النديم ـ كانت مرغوبة « مشتهاة في أيام خلفاء بنى العباس وسيما في أيام المقتدر ، فصنف الوراقون وكذبوا · فكان ممن يفعل ذلك رجل يعرف بابن دلان واسمه احمد بن دلان

واخر يعرف بابن العطار وجماعة » (٥٢). وكان من نتيجة ذلك كتب موضوعة على أصحابها يذكر منها ابن النديم على سبيل المثال كتاب الاغانى الكبير الذى ينسب الى اسحق بن ابراهيم الموصلى مع أن واضعه وراق « كان يسمى سندى ابن على ، وحانوته في طاق الزبل ، وكان يورق لاسحق ، فاتفق هو وشريك له على وضعه » (٥٣) .

وفي تعاملنا مع المخطوطات العربية ينبغى أن نتنبه الى هذه الظواهر جميعها والى ماخلفته فيها من بصمات. فقد كانت الامالى سببا في الاختلافات الواسعة التى نجدها بين نسخ الكتاب الواحد لان صاحبه أملاه أكثر من مرة وفي أكثر من موضع فزاد فيه ونقص . والنسخة التى يكتبها المؤلف غير تلك التى ينسخها الوراقون لان هؤلاء الوراقين لم يكونوا على درجة واحدة من الثقافة والامانة العلمية . وقد مر بنا صورة من صور تزييف الوراقين وفي فهرست ابن النديم نقرأ عن خط يسمى الخط الوراقى (٤٤) ومع أن صاحب الفهرست لم يحدثنا عن هذا الخط ولم يصفه لنا الا بأنه « محقق » ، الا أننا نرجح أنه كان يكتب بقلم جليل ليكون أكثر وضوحا ولتكون الصفحات أكثر عددا فيزداد الاجر تبعا لزيادة الصحف المنسوخة . يؤكد ذلك ما رواه ابن عساكر من أن مسند الحسين بن احمد النيسابورى (ـ ٣٦٥ هـ) « وقع في خطه في ألف وثلاثمائة جزء .. وفي خطوط الوراقين في أكثر من ثلاثة آلاف جزء (٥٥) ونرجح أيضا أن هذا الخط الوراقى كان في أغلب الاحوال أقل جودة من خطوط العلماء الذين ينسخون لانفسهم بدليل ما ينقله الصولى عن بعض الكتاب من أن الخط يوصف بالجودة «اذا خرج عن نمط الوراقين» (٥٦)

خزائن كتب التراث :

ولم يكن يمكن لحركة التأليف أن تنطلق في طريقها وتؤتى ثمارها لو لم يصاحبها تلك الظاهرة اللافتة التى سجلتها كتب التاريخ والحضارة بالاعجاب والتقدير ، وهى شغف المسلمين بقراءة الكتب وحرصهم على اقتنائها مما أدى الى ظهور المجموعات الخاصة وتضخمها منذ وقت مبكر . فابن سعد يروى في طبقاته عن موسى بن عقبة أنه قال : « وضع عندنا كريب (بن أبى مسلم) حمل بعير أو عدل بعير من كتب ابن عباس » (٥٧) ويروى ابن خلكان أن ابن شهاب الزهرى كان اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله واشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا حتى قالت له أمرأته ذات يوم : والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر (٥٨) ويذكر ابن النديم أن الواقدى خلف بعد وفاته في سنة ٢٠٨هـ « ستمائة قمطر كتبا ، كل قمطر منها حمل رجلين ، وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار ، وقبل ذلك بيع له كتب بألفى دينار » (٥٩) ، وان الفتح بن خاقان (ـ ٢٤٧ هـ) « كان له خزانة جمعها على بن يحيى المنجم له ،

لم ير أعظم منها كثرة وحسنا » (٥٠) ويروى ياقوت في معجمه أن على بن المنجم هذا كان له بكركر (من نواحى القفص) « قصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال على بن يحيى » (٦١)

ولم يكن حرص الخلفاء على تكوين مكتبات خاصة بهم أقل من حرص العلماء والمثقفين . وكانت تلك المكتبات الخلافية تتناسب في أحجامها وأهميتها مع اهتمام أصحابها بالعلم والعلماء . وأقدم تلك المكتبات وربما كانت أهمها مكتبة بيت الحكمة أو خزانة الحكمة التى أنشأها الرشيد في أواخر القرن الثانى والتى ازدهرت ازدهارا رائعا في عصر المأمون الذى عمل على جلب الكتب اليها من الشرق والغرب وجعل منها مركزا للبحث العلمي والترجمة والنسخ

وفي القرن الرابع الهجرى تظهر مكتبتان خلافيتان على جانب كبير من الاهمية احداهما للحكم المستنصر الاموى في قرطبة والاخرى للعزيز الفاطمى في القاهرة . وقد ذكر المقرى أن المكتبة الاولى بلغت أربعمائة ألف مجلد (٦٢) بينما قدرت كتب المكتبة الثانية في بعض الروايات بمليونى كتاب (٦٣) ومهما يكن في هذا الرقم من مبالغة فأكبر الظن أنها كانت تضم أكثر من مائة ألف لانها بعد أن بيع منها ما بيع ، وأحرق منها ما أحرق ، اختار منها القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الايوبى مائة ألف كانت نواة لمكتبة المدرسة الفاضلية التى أنشأها بالقاهرة .

ولقد كانت تلك المكتبات وأمثالها تتولى مهمة الحفاظ على تراث الامة وانمائه وتسليم الامانة للاجيا لاللاحقة جيلا بعد جيل .

وحينما كانت الدولة الاسلامية قوية مهيبة ، كان هذا التراث عزيزا مصانا ، ويوم بدأت تمزقها الفرقة ويدب في جسدها الضعف والوهن ، وتتعادى عليها شعوب الارض ، بدأت قبضتها على هذا التراث تضعف ، واهتمامها به يقل ، فبدأت كنوزه تتبدد ، وبدأت نفائسه تتسرب الى الخارج بارادتها حينا وبغير ارادتها في أكثر الاحيان . ويوم تعرضت الدولة الاسلامية للفتن الداخلية وللغزوين الصليبى والمغولى كانت أبرز مظاهر النكسه هى تلك التى لحقت بهذا التراث المخطوط اتلافا له وتدميرا . فأصبحنا نقرأ عن تلال الكتب في مصر (٦٤) وعن نهر دجلة الذى اسودت مياهه لكثرة ما ألقى فيها من مداد العلماء ابان الغزو المغولى .

ومن يومها انحسر المد الحضارى عن ديار المسلمين ، وتلقفت منهم الراية شعوب أخرى ، وتحول تراثنا المخطوط من مصدر اشعاع والهام حضارى للدنيا كلها ، الى مادة متحفية نكتفى بعرضها في المعارض وبيعها في الاسواق .

الهوامش والمصادر

(١) فتوح البلدان ، نشر صلاح الدين المنجد (مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠) ، ص ٥٨٠ ، ٥٨٣

(٢) مثل قصيدة لقيط بن يعمر الايادى التى بعث بها الى قومه ينذرهم فيها بغزو كسرى لهم ومثل تلك الاشعار التى يقال ان أصحابها أرسلوها الى النعمان بن المنذر يدافعون فيها عن أنفسهم ويلتمسون بها عفوه ورضاه ، والتى نذكر منها على سبيل المثال اعتذارات النابغة الشهيرة وقصائد عدى بن زيد التى يروى أنه كان يكتبها وهو رهين السجن ويرسل بها الى النعمان يستعطفه ٠

(٣) ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (دار المعارف ، ١٩٥٨) ، ص ٨٩

(٤) شرح القصائد العشر للتبريزى (لدارة الطباعة المنيرية ، ١٣٤٣ هـ) ص ٢٥٥

(٥) الفرقان ، آية ٥ (٦) الاسراء ، آية ٩٠ ـ ٩٤ (٧) الانعام ، آية ٩١

(٨) شرح القصائد السبع لابن النحاس (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٦٠ أدب) ، ورقة ١٠٠ ٠

(٩) انظر : معجم الادباء ، نشر مرجليوث ، ط ٢ (دار المأمون ، ١٩٢٢ ـ ١٩٣٨) ، حـ ١٠ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦

(١٠) الانسان ، نشر مرجليوث (مطبعة بريل ، ١٩١٢) ، ص ٤٨٦

(١١) جمهرة أشعار العرب (بولاق ، ١٣٠٨ هـ) ، ص ٢٤

(١٢) خزانة الادب، تحقيق محمد محيالدين عبدالحميد (دار العصور، ١٩٢٩)، حـ ١ ، ص ٨٨

(١٣) العصر الجاهلى ، لشوقى ضيف (دار المعارف ، ١٩٦٠) ، ص ١٥٨

(١٤) العلق ، آية ١ ـ ٥ (١٥) القلم ، آية ١ ـ ٢

(١٦) الطور ، آية ١ ـ ٣ (١٧) البقرة ، آية ٢٨٢

(١٨) تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش (المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٤٩) ، ص ٥٨

(١٩) المحكم في نقط المصاحف لابى عمرو الدانى ، تحقيق عزة حسن (مديرية احياء التراث القديم بوزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ، ١٩٦٠) ، ص ٢ .

(٢٠) وفيات الاعيان ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد (مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) ، حـ ١ ، ص ٣٤٤ .

(٢١) المحكم في نقط المصاحف ، ص ٢٢

(٢٢) الفهرست (المكتبة التجارية ، ١٣٤٨ هـ) ، ص ١٣٢ (٢٣) الفهرست ، ص ١٣١

(٢٤) الفهرست ، ص ١٣٦ (٢٥) الفهرست ، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ .

(٢٦) انظر : الفهرست . ص ١٤٠ ـ ١٤٣ ، ١٤٧ ـ ١٥٢ ، ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(٢٧) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . ط ٢ . (لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧) حـ ١ ، ص ٢٣٤

(٢٨) معجم الادباء ، حـ ١٦ ، ص ١٠٦ ـ ١١٠ (٢٩) الفهرست ، ص ٢٧٧

(٣٠) رسالة للبيرونى في فهرست كتب الرازى ، نشر بول كراوس سنة ١٩٣٦ ، وشرح حال محمد بن زكريا للدكتور محمود النجم آبادى ط سنة ١٣١٨ هـ .

(٣١) تاريخ بغداد (الخانجى ، ١٩٣١) ، حـ ٢ ص ١٦٣

(٣٢) الفهرست ، ص ٢٢٧

(٣٣) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق على عبدالواحد وافي (لجنة البيان العربى ، ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢) ص ٩٦٢ (٣٤) خطط المقريزى (بولاق ، ١٢٧٠ هـ) ، حـ ١ ، ص ٩١

(٣٥) صبح الاعشى (دار الكتب ، ١٩١٣ ـ ١٩١٨) ، حـ ٢ ، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ .

(٣٦) الفهرســـت ، ص ١٠٣ .

(٣٧) تاريخ بغداد ، حـ ١٢ ، ص ٢٤٨

(٣٨) تاريخ بغداد ، حـ ٣ ، ص ٢٨

(٣٩) تاريخ بغداد ، حـ ١٢ ، ص ٢٤٨

(٤٠) الامالى (دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦) حـ ١ ، ص ٣ .

(٤١) البلدان ، ط ٣ (المطبعة الحيدرية بالنجف ، ١٩٥٧) ، ص ١٣ . وقد توفى اليعقوبى بعد سنة ٢٩٢ بقليل .

(٤٢) مناقب بغداد لابن الجوزى ، تحقيق محمد بهجة الاثرى (مطبعة دار السلام ببغداد ، ١٣٤٢ هـ) ، ص ٢٦

(٤٣) Ialanic Boak (Leipqiq, 1929) p.32

(٤٤) الفهرست ، ص ١٦٩

(٤٥) تاريخ بغداد ، حـ ١١ ، ص ٣٩٩ .

(٤٦) تاريخ بغداد ، حـ ١٤ ، ص ١٥٠ .

(٤٧) الانساب ، ص ٥٨٠ ومعجم الادباء حـ ١٦ ، ص ١٠٦

(٤٨) معجم الادباء ، حـ ١٨ ، ص ١٢٥

(٤٩) معجم الادباء ، حـ ٧ ، ص ١٧٦

(٥٠) وفيات الاعيان ، حـ ٦ ، ص ٢٨

(٥١) الصلة لابن بشكوال (مكتب نشر الثقافة الاسلامية ، ١٩٥٥) ، حـ ١ ، ص ٢٩٩

(٥٢) الفهرست ، ص ٤٢٨

(٥٣) الفهرست ، ص ٢٠٣

(٥٤) الفهرست ، ص ١٢

(٥٥) التاريخ الكبير ، حـ ٤ ، ص ٣٥٢

(٥٦) أدب الكتاب ، تحقيق محمد بهجة الاثرى (المكتبة العربية ببغداد ، ١٣٤١ هـ) ، ص ٥٠

(٥٧) طبقات ابن سعد ، نشر ادوارد سخو (بريل ، ١٣٢١ ـ ١٣٣٩ هـ) ، حـ ٥ ، ص ٢١٦

(٥٨) وفيات الاعيان ، حـ٣ ، ص ٤١٧

(٥٩) الفهرست ، ص ١٤٤

(٦٠) الفهرست ، ص ١٦٩

(٦١) معجم الادباء ، حـ ١٥ ، ص ١٥٧

(٦٢) نفح الطيب ، نشر دوزى (بريل ، ١٨٥٥ ـ ١٨٦١) ، حـ١ ، ص ٢٥٦

(٦٣) الروضتين في أخبار الدولتين (مطبعة وادى النيل ، ١٢٨٧ هـ) حـ١ ، ص ٢٠٠ .

(٦٤) خطط المقريزى ، حـ ١ ، ص ٤٠٩